أم كلثوم

تَحْتَ شَجَرَةِ الجُمَّيْز ، جَلَسَتِ الطِّفْلَة الفلاحة الصغيرة : « ام كلثوم فَرْحَانَة ، وَهِيَ تَتَطَلَّعُ إِلَى مَا حَوْلَهَا ، وَإِلَى الْعَصَافِيرِ الَّتِي تُزَقْزِقُ وَتَطِيرُ فَوْقَهَا ، فِي حِينَ رَاحَتْ أَصَابِعُهَا تُدَاعِبُ قِطَّتَهَا الصَّغِيرَة ، وَقَدَمَاهَا تُلَامِسَانِ مِيَاهَ التُّرْعَة .

إِنَّهَا سَعِيدَةٌ بِالرَّاحَةِ بَعْدَ أَنْ عَمِلَتْ فِي الْحَقْل ، بِمُجَرَّدِ عَوْدَتِهَا مِنْ كُتَّابِ الْقَرْيَةِ مَعَ أَخِيهَا « خَالِد » ، الَّذِي يُدَرِّبُهُ الْآنَ وَالِدُهُمَا الشَّيْخُ « إِبْرَاهِيمُ » عَلَى غِنَاءِ التَّوَاشِيح ، فِي الدَّار .

كَانَ الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ يَعْمَلُ إِمَاماً لِمَسْجِدِ الْقَرْيَة . . قَرْيَةِ « طِمَاى الزَّهَايْرَة » ، بِمَرْكَزِ السِّنْبلاَّوِين ، فِى مُحَافَظَةِ الدَّقَهْلِيَّة ، حَيْثُ وُلِدَتِ ابْنَتُهُ « أُمُّ كُلْثُوم » ، وَهُوَ الَّذِى سَمَّاهَا بِاسْمِ إِحْدَى بَنَاتِ النَّبِىّ . ولأَنَّـهُ كَانَ مَحْدُودَ الدَّخْلِ ، رَأَى أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ حَلاَوَةِ صَوْتِه ، فَأَخَذَ يَقْـرَأُ الْقُـرْآن ، وَيُنْشِدُ التَّوَاشِيحَ فى الْمَوَالِدِ وَحَفَلَاتِ الْقَـرْيَة ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ أَنْ يَعُولَ أُسْرَتَهُ وَيُعَلِّمَ أَوْلَادَه . وَلِهٰذَا أَلْحَقَ ابْنَتَهُ « أُمَّ كُلْثُوم » بِكُتَّابِ الْقَـرْيَةِ لِتتعَلَّم .

وَلٰكِنَّها كانَتْ طِفْلَةً ذَكِيَّةً ، كَثِيرَةَ المُداعَبَةِ .

وكَثِيراً ما كانَتْ تُقَلِّدُ مَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْها . إذْ كانَتْ شَدِيدَةَ المُلاحَظَةِ .

وفِي يَوْمٍ رَآهَا والِدُها الشَّيْخُ إبْراهِيمُ ، وهِيَ واقِفَةٌ وَراءَ البابِ ، تُحاوِلُ أَنْ تُقَلِّدَهُ وَهُوَ يُدَرِّبُ أخاهَا خالِدًا عَلَى إنْشادِ التَّواشِيحِ !

وَتُقَلِّدُ أخاهَا فِي إنْشادِهِ وغِنائِهِ . .

وَمَا أَكْثَرَ الدَّهْشَةَ الَّتِي ارْتَسَمَتْ عَلَى وَجْهِ والِدِها . .

كانَتْ « أُمُّ كُلْثُوم » ، البِنْتُ الصَّغِيرَة ، لَهَا صَوْتٌ حُلْوٌ جِدًّا . وَقَدْ سَمِعَها أَبُوها تُعِيدُ التَّواشِيحَ الَّتِي يَتَعَلَّمُها أَخُوها « خالِد » ، فَلَمْ يُؤَنِّبْها أَوْ يُوَبِّخْها ، بَلْ

obeikandl.com

أَعْطَاهَا قِطْعَةَ حَلْوَى وَطَبَقَ (مهلَّبِيَّة) ، سُرُوراً بِهَا ، وَمُكَافَأَةً لَهَا .

وَبَدَأَ يَعْتَنِي بِتَدْرِيبِهَا عَلَى الْغِنَاء ، وَيَأْخُذُهَا مَعَ أَخِيهَا ، لِيَشْتَرِكَا مَعَهُ فِي إِحْيَاءِ حَفَلَاتِ الْقُرَى الْمُجَاوِرَة ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَضَعَ عَلَى رَأْسِهَا غِطَاءً وَعِقَالًا حَتَّى تَبْدُوَ وَكَأَنَّهَا فَتًى لَا فَتَاة !

وَكَانَتِ الطِّفْلَةُ : « أُمُّ كُلْثُوم » ، تُصِرُّ عَلَى أَنْ تَعْتَلِيَ الْأَرِيكَة ، وَتَقِفَ عَلَيْهَا وَهِيَ تُغَنِّي .

وَكَانَ الْمَأْلُوفُ – وَقْتَئِذٍ – أَنْ يَجْلِسَ الْمُطْرِبُ فِي أَثْنَاءِ الْغِنَاء .

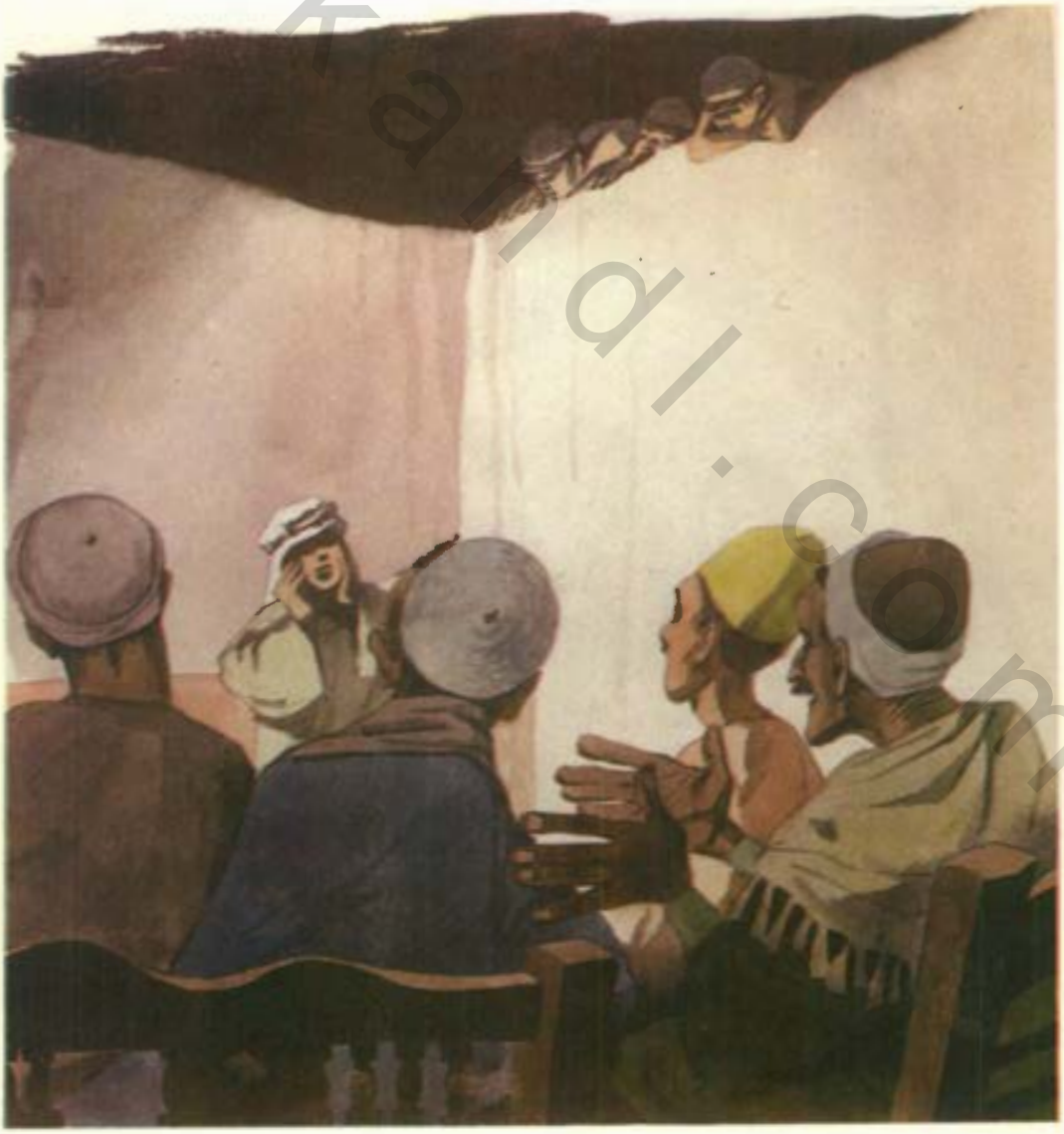

obeikandl.com

وَبَدَأَ اسْمُ « أُمِّ كُلْثُوم » الفَلَّاحَةُ الصَّغِيرَةُ (أُمُّ) عِقَال يَنْتَشِرُ بَيْنَ الْفَلَّاحِين . . كَانَ صَوْتُهَا ذَهَبِيًّا ، صَافِيًا ، يَأْسِرُ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْه . وَطَارَ صِيتُهَا إِلَى « السِّنْبِلَّاوِين » ، وَإِلَى الْقُرَى وَالْمَرَاكِزِ وَالْمُدُنِ الْقَرِيبَة ، وَكَانَ مِنْ بَيْنِ الَّذِينَ سَمِعُوا عَنْهَا الْمُطْرِبُ الْمَشْهُورُ الشَّيْخُ « أَبُو الْعِلَا » .

زَارَهَا الشَّيْخُ « أَبُو الْعِلَا » ، وَاسْتَمَعَ إِلَيْهَا فِى بَيْتِ وَالِدِهَا فِى قَرْيَةِ « طِمَايْ » ، فَطَارَ مِنَ الْفَرْحَةِ بِهَا ، وَطَارَتْ هِىَ مِنَ السَّعَادَةِ بِتَشْرِيفِ الشَّيْخِ « أَبُو الْعِلَا » لِدَارِهَا !

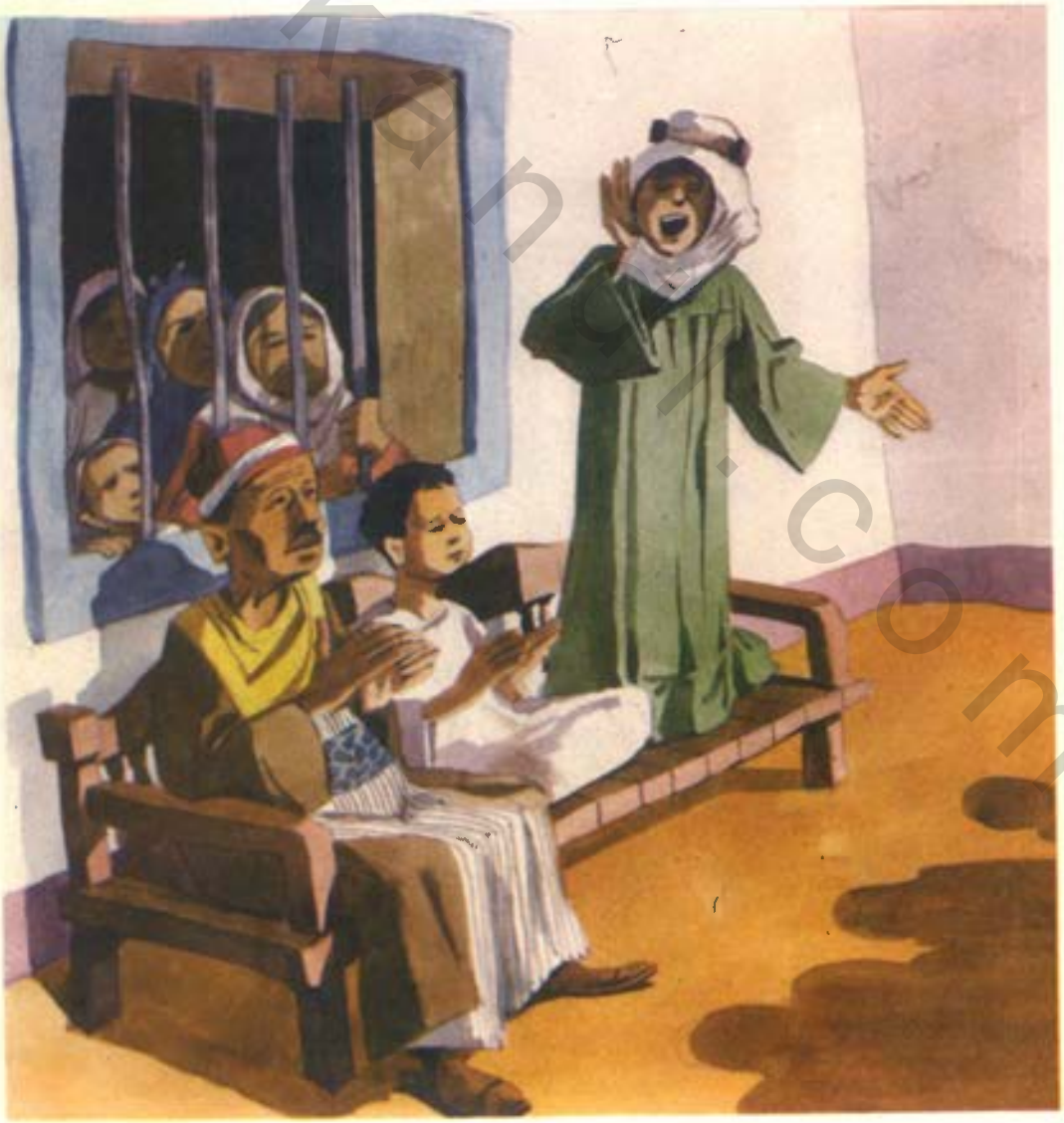

obeikandl.com

وَاسْتَطَاعَ الشَّيْخُ « أَبُو الْعِلَا » أَنْ يُقْنِعَ وَالِدَهَا بِأَنَّ مَكَانَ ابْنَتِهِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِى الْعَاصِمَة . . فِى الْقَاهِرَة ، حَيْثُ عَالَمُ الْفَنِّ الْكَبِير . وَاقْتَنَعَ الْوَالِد ، وَذَهَبَتِ الْأُسْرَةُ الصَّغِيرَةُ لِتَرْكَبَ الْقِطَار إِلَى الْقَاهِرَة !

وَفِى زِحَامِ الْعَاصِمَة ، بَدَأَتْ « أُمُّ كُلْثُوم » تَصْعَدُ سُلَّمَ الْمَجْد بِسُرْعَة ، وَسَطَ بَرِيقِ النَّجَاحِ وَدَوِىِّ التَّصْفِيق . الصَّحَافَةُ تَكْتُبُ عَنْهَا . . . الشُّعَرَاءُ يَتَهَافَتُونَ عَلَيْهَا لِتَغَنِّىَ أَشْعَارَهُمْ وَقَصَائِدَهُمْ ، وَمِنْ بَيْنِهِمْ عَرَفَتْ وَتَقَابَلَتْ مَعَ أَمِيرِ الشُّعَرَاءِ أَحْمَدَ شَوْقِى وَأَحْمَدَ رَامِى وَكَامِلِ الشِّنَّاوِى وَبَيْرَمِ التُّونُسِىِّ .

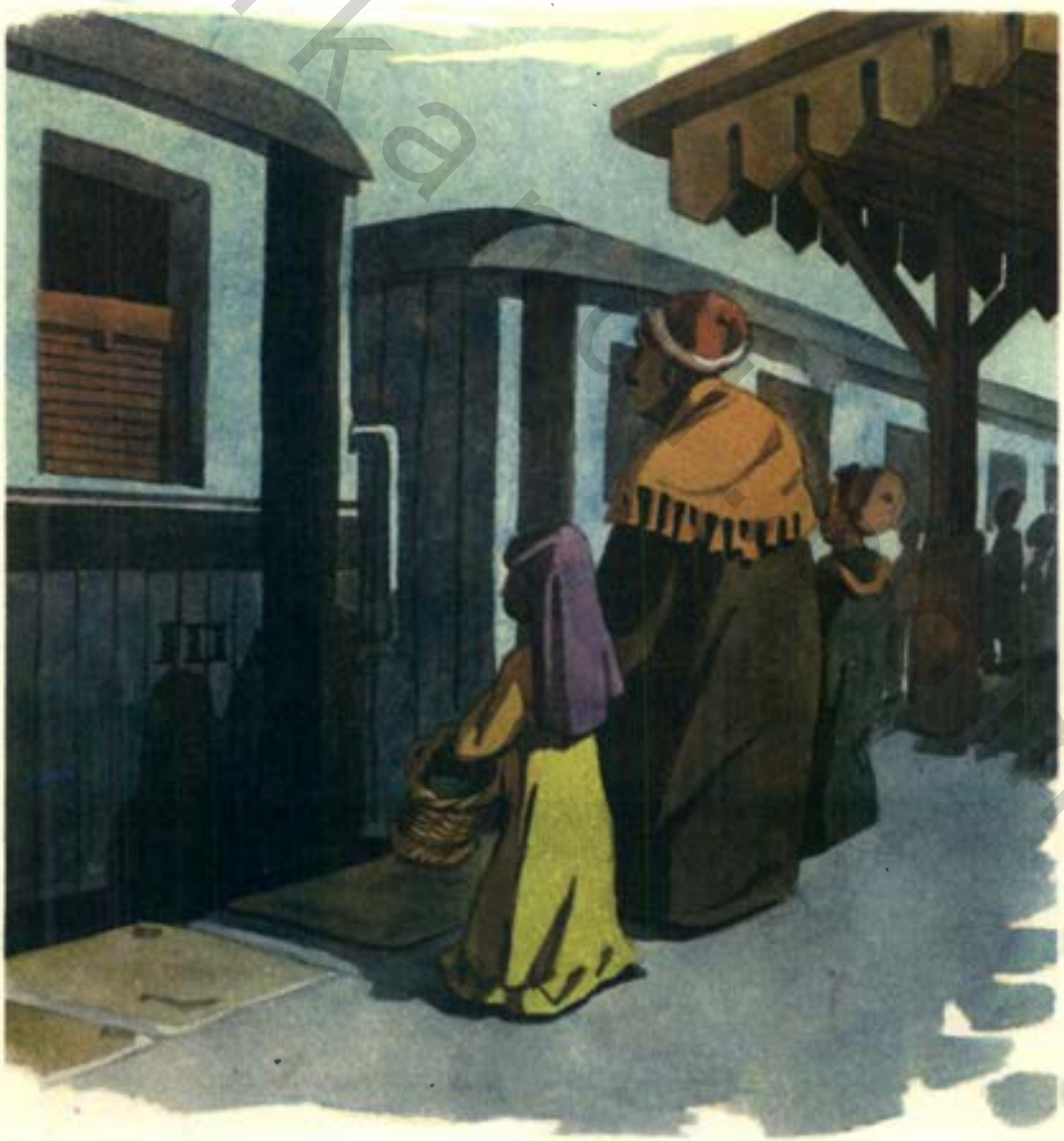

وَظَهَرَ عَصْرُ الْمِيكْرُوفُون . وَغَنَّتْ أَمَامَه . . . صَفَّقَتْ لَهَا الْأُمَّةُ الْعَرَبِيَّةُ كُلُّهَا ، بَعْدَ أَنْ مَلَأَتِ الْأُفُقَ الْعَرَبِيَّ بِسِحْرِ صَوْتِهَا . وَأَهْدَتْ إِلَيْهَا الْحُكُومَاتُ الْأَوْسِمَةَ الرَّفِيعَة ، وَصَفَّقَ لَهَا الشَّعْب ، وَمَثَّلَتْ فِى السِّينِمَا عِدَّةَ أَفْلَامٍ مِنْ بَيْنِهَا : وِدَاد – سَلَّامَة – دَنَانِير – فَاطِمَة . ثُمَّ اعْتَزَلَتِ الشَّاشَةَ لِتَتَفَرَّغَ لِلْغِنَاءِ وَالْأُسْطُوَانَاتِ وَالتِّلِفِزْيُونِ وَالْإِذَاعَة .

وَلَحَّنَ لها كُلُّ مُوسِيقَارٍ مُمْتَازٍ مِثْل : مُحَمَّدِ عَبْدِ الْوَهَّاب ، وَالْقَصَبْجِى ، وَرِيَاضِ السِّنْبَاطِى ، وَزَكَرِيَّا أَحْمَد ، وَمَحْمُودِ الشَّرِيف ، وَمُحَمَّدِ الْمُوجِى ،

وَكَمَال الطَّوِيل ، وسَيِّد مَكّاوِى . وَتَحَوَّلَ الشِّعْرُ الْعَرَبِىُّ عَلَى لِسَانِهَا أُغْنِيَةً تَغَنَّتْ بِهَا فِى أَغْلَبِ عَوَاصِمِ الدُّوَلِ ، وَمِنْ بَيْنِهَا بَارِيس .

وَهٰكَذَا صَارَتِ الْبِنْتُ الْفَلَّاحَةُ الصَّغِيرَة « أُمُّ كُلْثُوم » سَيِّدَةَ الْغِنَاءِ الْعَرَبِىّ ، وَكَوْكَبَ الشَّرْق ، تُشَارِكُ فِى إِسْعَادِ الشَّعْبِ الْعَرَبِىِّ وَانْتِصَارَاتِه .

وَتَمْضِى الْأَيَّامُ . . وَتَرْحَلُ « أُمُّ كُلْثُوم » عَنْ عالِمَنا إِلَى رِحَابِ اللهِ فِى ٥ فِبراير سنة ١٩٧٥ ، فَتَشْهَدُ الْقاهِرَةُ حَدَثاً هَزَّ عَواطِفَها ؛ إِذْ وَدَّعَها مِلْيونٌ مِنَ الْبَشَرِ كَما بَكَتْها أُمَّةُ الْعَرَبِ وَهِىَ مُنْطَلِقَةٌ إِلَى عَالَمِ الخُلودِ .